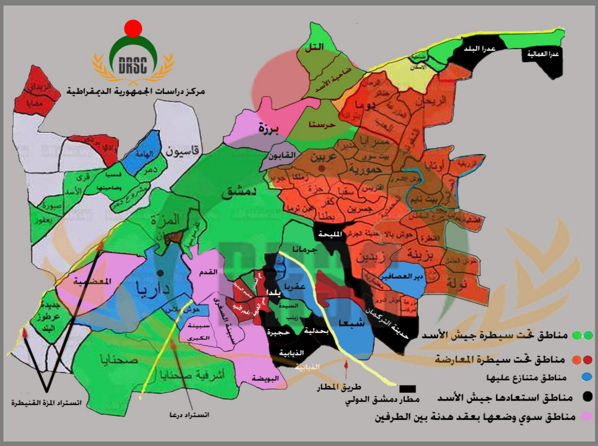
تقدير موقف

الوضع العسكري في دمشق

صبر درويش



مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

31-10-2014

الوضع العسكري في دمشق

صبر درويش

عضو هيئة تحرير قسم التحليل السياسي والإحصاء في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية.

إعلاميٌّ وصحفيٌّ سوريّ، درس في كلية الإعلام جامعة دمشق، عمل في مجال الإعلام أثناء الثورة السورية وساهم بتأسيس مركز شرارة آذار الإعلامي نهاية عام 2011، والذي صدر عنه جريدة شرارة آذار، كما عمل كصحفيٍّ ميدانيٍّ في مدن وبلدات محيط دمشق، وأمضى من نهاية عام 2012 وحتى نهاية 2013 في الغوطة الشرقية. له العشرات من التقارير الخبرية الميدانية الصحفية والتلفزيونية المنشورة في صحف وقنوات عربية عدة، كما ساهم مع فريق شرارة آذار بإخراج الفيلم الوثائقي "المشحم" الذي عرض على قناة العربية مطلع نيسان الفائت". اعتقل في 15-3-2011 أثناء مشاركته في مظاهرة الحميدية، وأُفرج عنه في نهاية آذار من العام ذاته، مقيم في بيروت منذ مطلع العام الجاري

فهرس المحتويات

مقدمـة

شهدت الأشهر القليلة الماضية، تراجعاً واضحاً على صعيد مساحة الأرض التي تسيطر عليها قوى المعارضة السورية في محيط العاصمة دمشق، والملاحظة الأبرز على هذا الصعيد، تسجيل قوات الأسد لتقدم عسكريّ على عددٍ كبيرٍ من الجبهات الإستراتيجية في المنطقة.

بداية، تمكنت قوات الأسد من السيطرة على جبهة المليحة شرق العاصمة دمشق، وذلك بعد أكثر من 135 يوماً من صمود مقاتلي المعارضة، وبعدها خسرت قوات المعارضة جبهة مدينة عدرا شمال شرق العاصمة، بعد أن انسحبت قوات المعارضة منها، بحجة دعم جبهات الدخانية وعين ترما وحي جوبر شرق العاصمة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل استمرت قوات المعارضة بخسارة الجبهات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، وكان آخرها خسارة جبهة الدخانية والتي شكلت صدمة أثارت العشرات من التساؤلات في أوساط الناشطين السوريين حول أسباب هذه الخسارة والعوامل التي تقف خلفها.

في هذه الأثناء، ماتزال هناك بعض الجبهات الصامدة وبشكلٍ يثير الدهشة، وذلك رغم القصف العنيف الذي تتعرض له من قبل قوات النظام، كجبهة حي جوبر شرق العاصمة والذي استخدمت فيه قوات الأسد مؤخراً أسلحةً روسية حديثة، تحدث دماراً واسعاً، بحسب شهود عيان. بالإضافة إلى صمود مدينة داريا والتي تعاني إضافة إلى القصف المُركّز والشبه يومي، من حصارٍ شديدٍ امتدَّ لأكثر من عامين.

مجمل هذه التطورات على الصعيد العسكري في محيط العاصمة دمشق، يطرح العديد من التساؤلات، أهمها: ما هي العوامل والأسباب التي تقف خلف هذا التراجع الدراماتيكي لقوات المعارضة السورية؟ وهل ستتمكن حقاً من الحفاظ على ما تبقى من جبهات؟

أولاً: الخريطة العسكرية لجبهات محيط العاصمة دمشق[i]

خلال عامي 2013– 2014، طرأت تطوراتٌ دراماتيكية على توزع الجبهات والقوى العسكرية في محيط العاصمة، والتي تناوبت في السيطرة عليها قوى المعارضة بتشكيلاتها المختلفة، من جهة، وقوات الأسد المدعمة بميلشيات حلفائه كحزب الله اللبناني، ولواء أبي الفضل العباس العراقي، وغيرها، من جهة أخرى. وباتت لوحة الخريطة العسكرية لتوزع الجبهات، مع نهاية عام 2014، على الشكل التالي:

1- الخريطة العسكرية لتوزع الجبهات في جنوب العاصمة دمشق:

منذ نحو منتصف عام 2012، سيطرت قوات المعارضة السورية على العديد من الأحياء والبلدات الواقعة جنوب العاصمة دمشق. وتمتدُّ المنطقة التي تسيطر عليها مجاميع المعارضة من مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين بالقرب من منطقة القاعة في حي الميدان، وحي الحجر الأسود المحاذي لمخيم اليرموك من جهة الجنوب، والذي تقطنه غالبية من نازحي الجولان والقنيطرة، وحتى حيي القدم والعسالي المحاذيتين لحي الحجر الأسود، بالإضافة إلى بلدات يلدا وببيلا وبيت سحم وغيرها العشرات من الأحياء والبلدات التي تمتد حتى تخوم منطقة الست زينب والتي تسيطر عليها قوات النظام.

وبعد معارك ضارية بين قوات المعارضة ونظام الأسد، استمرت لأكثر من عامين، تمكنت قوات الأسد من إحداث دمارٍ شاملٍ على صعيد البنى التحتية ومساكن المدنيين، حتى تجاوزت نسبة الدمار بحسب بعض التقديرات الـ 60% من المنازل السكنية.

ويعدُّ مخيم اليرموك واحداً من أكبر الأحياء وأكثفها سكاناً، والذي يتواجد فيه أعلى نسبة للاجئين الفلسطينيين. وبحسب آخر التقارير[1]، فإن مخيم اليرموك يخضع لحصارٍ عنيفٍ من قبل قوات الأسد نحو 500 يوم، منع وبشكل شبه كامل، دخول المواد الغذائية والطبية إلى سكان المخيم، كما قطع عنه التيار الكهربائي، وهو ومنذ نحو الشهرين لا يحصل على مياه صالحة للشرب.

[1]- راجع: قائمة إحصائيات الشهداء الفلسطينيين في الثورة السورية، قسم إحصائيات الثورة السورية في مركز دراسات مركز الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/EEKUwy

وبحسب إحصائيات مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية فإن أكثر من 155 شهيداً، سقطوا بسبب الجوع في المخيم، وأكثر من 9 مساجد متضررة جراء القصف على المخيم، وأكثر من 13 مدرسة متضررة تابعة للأونروا، و3 مشافٍ متضررة في المخيم. بينما وصل عدد الذين قتلوا تحت التعذيب في معتقلات النظام إلى 266 شاباً، ووصل عدد الشهداء الفلسطينيين الموثقين لـ 2530 جراء الأزمة في سورية.

ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للأحياء الأخرى كالعسالي والقدم والحجر والتضامن وغيرها، وتكاد تكون الإحصائيات متقاربة على صعيد حجم الدماء وأعداد الضحايا.

وحتى الربع الأول من عام 2013، تمكن مقاتلو المعارضة من التصدّي لهجمات قوات النظام الساعية إلى إعادة سيطرتها على المنطقة، والتي تكتسب أهميتها بحكم كونها تشكل واجهة دمشق الجنوبية من جهة، وكونها تمتد على الطريق الدولي الذي يصل دمشق بالمحافظات الجنوبية من البلاد من جهة أخرى.

وبعد منتصف عام 2013، بدأت قوات النظام بإحراز تقدم على عدة جبهات، بداية تمكنت من فرض سيطرتها على البلدات الواقعة إلى جانب طريق مطار دمشق الدولي من جهة الغرب، فسيطرت على بلدات الذيابية والبويضة وغيرها، وبعدها نجحت بالسيطرة على بلدات في عمق المنطقة الجنوبية كبلدة حجيرة وسبينة، بينما تمكنت قواتُ الأسد من فرض هدن على البلدات والأحياء التي لم تتمكن من دخولها عسكرياً، كبلدات يلدا وببيلا وأجزاء من حي القدم والعسالي[(2)].

ومن مجمل المنطقة الجنوبية، لم يبقَ خارج سيطرةِ قوات النظام، سوى مخيم اليرموك، وأجزاء من حيّي القدم والعسالي، وحيّ الحجر الأسود، وبيت سحم، وحي التضامن..، وتخضع هذه الأحياء بمجملها إلى حصار شديد، يسعى من خلاله نظام الأسد إلى إخضاع هذه المناطق وإجبارها على توقيع هدنة معه.

---

[2] - حول سياسة الهدن في محيط دمشق، راجع للباحث لماذا اختارت سلطة الأسد الهدن في العاصمة ولماذا وجدتها الفصائل المسلحة مناسبة؟، مركز الجمهورية الديموقراطية للدراسات، 27-8- 2014.

2- آخر التطورات على الجبهة الشرقية

تمتدُّ الجبهة الشرقية، من تخوم مدينة عدرا شمال شرق العاصمة دمشق، وحتى طريق مطار دمشق الدولي جنوب شرق العاصمة، وتضمُّ العشرات من المدن والبلدات، كمدينة دوما وحرستا وعربين وزملكا، والعشرات من البلدات الصغيرة ككفر بطنا وعين ترما وحران العواميد ودير سلمان وغيرها العديد.

مع بداية عام 2012، تشكلت أولى المجموعات العسكرية في الغوطة الشرقية، وتمكنت خلال هذا العام من السيطرة على مدينة دوما أكبر مدن الغوطة، ومعقل لأقوى تشكيلات المعارضة العسكرية.

وبعد منتصف عام 2012، توسعت الرقعة التي تسيطر عليها قوات المعارضة، فشملت أجزاءً من مدينة حرستا، وعربين، وزملكا بعد المجزرة التي تعرضت لها البلدة منتصف عام 2012 والتي راح ضحيتها العشرات من المدنيين.

مع نهاية عام 2012، كانت أغلب مدن وبلدات الغوطة الشرقية من مدينة عدرا شمالاً وحتى بلدة العتيبة المتاخمة لمطار دمشق الدولي جنوباً، جميعها تحت قبضة قوات المعارضة.

وفي الغوطة الشرقية، ستنشأ أقوى التشكيلات العسكرية المعارضة على الإطلاق، كجيش الإسلام بقيادة زهران علوش ومقره في مدينة دوما، وألوية الحبيب المصطفى وفيلق الرحمن وجيش الأمة، وغيرها العشرات من المجاميع العسكرية عالية التدريب والتذخير.

في آذار من عام 2013، نجحت قوات المعارضة وبقيادة لواء الإسلام –الذي أصبح جيش الإسلام فيما بعد– وألوية الحبيب المصطفى، وغيرها من التشكيلات المعارضة، من التقدم باتجاه حي جوبر الملاصق لمدينة دمشق من جهة الشرق، وأحكمت سيطرتها على أجزاء من المتحلق الجنوبي الذي يخترق عمق الغوطة الشرقية، وشكل هذا التقدم للمعارضة في أثنائه أخطر اختراق لها بالاقتراب من عمق العاصمة دمشق.

إلا انه ومنذ ذلك التاريخ –ويا للمفارقة– ستتعرض قوات المعارضة لسلسلةٍ من الهزائم العسكرية، ستعد الأخطر من نوعها.

ففي آذار من ذاك العام، ستخسر قوات المعارضة سيطرتها على بلدة العتيبة جنوب الغوطة الشرقية وبوابتها على العالم الخارجي، كما ستفشل في السيطرة على إدارة المركبات الواقعة في عمق الغوطة بالقرب من مدينة حرستا، كما ستخسر المعارضة سيطرتها على أغلب المدن والبلدات المحيطة بمطار دمشق الدولي، كحران العواميد ودير سلمان والقيسا.. وغيرها.

وستتوالى خسارات قوات المعارضة على طول الفترة الممتدة من آذار 2013 وحتى اليوم في نهاية عام 2014.

إذ ستخسر قوات المعارضة مؤخراً سيطرتها على بلدة المليحة جنوب الغوطة الشرقية، كما ستفشل في المحافظة على جبهة الدخانية المتاخمة لمدينة جرمانا وحي الدويلعة، والتي تقدمت باتجاهها بعد خسارة جبهة المليحة، كما ستضطر إلى الانسحاب من مدينة عدرا شمال الغوطة بحجة دعم جبهات حي جوبر والدخانية وعين ترما.

وستكون المحصلة النهائية لصراعٍ ضارٍ استمرَّ نحو العامين، تآكلاً خطيراً على صعيد جبهات الغوطة الشرقية، والتي سجلت فيها جبهة حي جوبر استثناء في صمودها الأسطوري في وجه الهجمات الشرسة لقوات الأسد، والتي أدّت إلى دمارٍ عظيم في الحي، مستخدمة أكثر الأسلحة فتكاً في العالم.

تنوء اليوم جبهتا حي جوبر وعين ترما تحت ضغط قوات الأسد، ولا شيء يؤكد مستقبل الصراع على هاتين الجبهتين، إلا أن سقوطهما بيد قوات الأسد، يعني أن هذه الأخيرة نجحت في إحكام سيطرتها على طول المتحلق الجنوبي، والذي يعني تأمينها للجبهات القريبة من تخوم دمشق المدينة.

3- جبهة القلمون والانـهيار السريع

تمتد الجبهة الشمالية من العاصمة دمشق على طرفي الطريق الدولي الذي يربط دمشق بالمنطقة الوسطى، وتضمّ العشرات من المدن والبلدات التي تتوزع غرب الطريق الدولي وتسمى بالقلمون الغربي، وتضم العديد من البلدات كيبرود، وقارة، ورنكوس، وفليطة، وعسال الورد وغيرها، وبلدات وقرى شرق الطريق الدولي وتسمى بالقلمون الشرقي، وتضم بلدات الضمير والتيفور وحفير والنبك وغيرها.

ومنذ الربع الأول من عام 2012، تمكنت قوى المعارضة من السيطرة على العديد من هذه البلدات، والتي كان أهمها سيطرتها على مدينة يبرود ورنكوس وعسال الورد بمحاذاة الحدود اللبنانية غرباً، ومدينة النبك والضمير شرقاً.

ومنذ حزيران عام 2013 وبعد سقوط بلدة القصير[3] في محافظة حمص والتي تعدُّ امتداداً للسلسلة الحدودية التي تفصل سوريا عن لبنان، باشرت قوات الأسد وبمساندة ميلشيا حزب الله اللبناني، بشنِّ هجماتٍ مكثفة على مدن وبلدات القلمون.

وخلال هذه المعارك التي امتدت من نهاية عام 2013 وحتى منتصف عام 2014، ستتمكن قوات الأسد من استعادة سيطرتها بداية على بلدة قارة وبعدها مدينة النبك، لتباشر بعدها بضرب حصار على مدينة يبرود تحضيراً لاقتحامها.

ولتتهاوى بعدها باقي مدن وبلدات القلمون الواحدة تلو الأخرى، بداية مع بلدة قارّة نفسها، حيث بدأت قوات الأسد معركة جبال القلمون في 14 تشرين الثاني 2013، إذ تمكنت من السيطرة عليها وبعدها سيطرت على بلدتي دير عطية والنبك، فيما دعي في أثنائه بالمرحلة الأولى من معركة القلمون، ومن ثم استؤنفت معارك "المرحلة الثانية" في منتصف شهر شباط الماضي (2014)، حيث سيطرت قوات النظام على المزارع المتاخمة لمدينة يبرود، كمزارع ريما شرق يبرود ومزارع الجراجير وغيرها، إضافة إلى عددٍ من التلال المشرفة عليها، لتنتهي العمليات العسكرية بسقوط مدينة يبرود، منتصف آذار 2014[4].

بخسارة قوى المعارضة السورية لمواقعها في سلسلة القلمون، خسرت أهم منفذين إستراتيجيين لها، الأول وهو المنفذ المطلُّ على الحدود اللبنانية، وهو ما أدى إلى خسارتها لطرق تهريب السلاح والذخيرة والمواد الطبية، والمنفذ الآخر شرق الطريق الدولي والذي يعد البوابة الوحيدة على الغوطة الشرقية من جهة الشمال، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى إحكام الحصار على الغوطة الشرقية وعزلها عن محيطها الخارجي.

---

[3]- راجع: 5 حزيران 2013: سقوط القصير.. و«حزب الله»، جريدة المستقبل، 6-6-2013، العدد 4709 - صفحة 1.

[4]- علي منتش، ماذا يعني سقوط يبرود؟، جريدة النهار اللبنانية، 16 آذار 2014.

تمخّض عن كل هذه التطورات الدراماتيكية على الصعيد العسكري، تمكن قوات النظام من إحكام سيطرته على مدخل مدينة دمشق الشمالي أولاً، وتأمين الطريق الممتد من دمشق وحتى مدن الساحل السوري مروراً بمحافظتي حمص وحماه ثانياً، وتأمين الحدود السورية اللبنانية وقطع طرق الإمدادات للمعارضة ثالثاً، وهو النجاح الأبرز لقوات النظام في الفترة الممتدة بين منتصف عام 2013 وحتى منتصف عام 2014.

4- الجبهة الغربية من العاصمة دمشق

تمتد الجبهة الغربية من العاصمة دمشق من الحدود اللبنانية غرباً وحتى تخوم دمشق، وتضم أعنف الجبهات وأهمها بالمعنى الإستراتيجي، وهي جبهة مدينة الزبداني بالقرب من الحدود اللبنانية، وجبهة مدينة داريا الملاصقة لعمق مدينة دمشق، ومدينة المعضمية وغيرها من البلدات.

في بداية عام 2012 كانت مدينة الزبداني واحدةً من أولى المدن التي سيطرت عليها قوى المعارضة، واستتبعها بعد ذلك امتداد سيطرة المعارضة على وادي بردى وصولاً إلى بلدة عين الفيجة، وبخلاف العديد من الجبهات القريبة منها، كجبهة يبرود على سبيل المثال، تمكنت مدينة الزبداني من الصمود أمام هجمات قوات النظام العنيفة، والتي أدت إلى تدمير المدينة بالكامل، وفرضت على قوى المعارضة القبول بعقد هدنة على أجزاء واسعة من المدينة، أفضت، وبحسب أحد الناشطين من مدينة الزبداني، إلى إحكام قوات الأسد لسيطرتها على طرق الإمداد التي تصل الزبداني بالأراضي اللبنانية، بينما الاشتباكات بين الطرفين ما تزال تجري حتى اليوم نهاية 2014.

بالنسبة لمدينة معضمية الشام، والتي لا تبعد سوى بضعة كيلو مترات عن العاصمة دمشق، فقد صمدت المدينة لأشهر طويلة في وجه الحصار الخانق الذي فرضته قوات الأسد على المدينة، مما دفعها لاحقاً إلى قبول عقد هدنة مع النظام فرضت خروج مقاتلي المعارضة من المدينة مقابل فك الحصار عنها.

داريا التي تمتد بساتينها حتى تلاقي بساتين كفر سوسة بعمق العاصمة، قدمت واحدة من أهم التجارب حول قدرة الثوار على الدفاع عن مدينتهم. إذ تعرضت مدينة داريا للعديد من المجازر قبل أن تتمكن قوات المعارضة من فرض سيطرتها على المدينة.

بعد دخول قوات المعارضة مدينة داريا، عمدت قوات النظام إلى ضرب حصار على المدينة، وقصفها بكل أنواع الأسلحة الثقيلة، وهو ما أدى وبعد مضي نحو العامين على المعارك الدائرة بين الطرفين، إلى تراجع قوات المعارضة عن أجزاء واسعة من المدينة، والاكتفاء بالتحصن ببعض البساتين المحيطة بالمدينة.

ثانياً: أهم العوامل التي تقف خلف الخسارات العسكرية للمعارضة السورية

حققت قوى المعارضة السورية بين عامي 2012 وحتى الربع الأول من عام 2013، انتصاراتٍ عسكريّةً مهمة في محيط العاصمة دمشق، أشاعت جوّاً من التفاؤل لدى الناشطين السوريين باقتراب "ساعة الحسم"، وإمكانية تقدم قوى المعارضة باتجاه عمق العاصمة والاستيلاء عليها وإسقاط نظام الأسد، ووضع حدٍّ لهذه الحرب المدمرة؛ إلا أن التطورات اللاحقة، ذهبت باتجاه مختلف، إن لم نقل إنه معاكسٌ لهذه التوقعات، وبدأت ومنذ ربيع 2013 قوى المعارضة بالتراجع والانسحاب من الجبهات، والسؤال الذي يبرز هنا: **ما الأسباب التي تقع خلف هذه الانسحابات وهذا التراجع الخطير لقوى المعارضة السورية؟**

1 – عوامل عسكرية

لا يمكن بحال من الأحوال، مقارنة قوات نظام الأسد العسكرية بقوات المعارضة، لا على صعيد الكم ولا على صعيد الكيف.

وعلى الرغم من أن مجاميع المعارضة العسكرية، ورغم كل التطورات التي طرأت على بنيتها الهيكلية والتنظيمية، لم تكن في أحسن الأحوال، أكثر من مجموعاتٍ مقاتلة من الثوار والتي تفتقد إلى التنظيم والخبرة من جهة، والعتاد النوعي والذخيرة من جهة أخرى، إلا أنها خاضت حربها ضد قوات الأسد وكأنها جيشٌ مقابل جيش.

لم تدرك قوات المعارضة إلا مؤخراً، وبعد خسارتها للعديد من مواقعها، أهمية حرب العصابات، وهي التي تفترض–أي حرب العصابات– أن الثوار لا يسيطرون على الأرض بداية، وإنما يضربون ويهربون، ويشتتون قوات الخصم، ويرهقونها، وهو فعلياً ما باشرت بتنفيذه قوات المعارضة في منطقة القلمون وتحديداً بعد سيطرة قوات النظام عليه.

كان من أهم أخطاء قوى المعارضة، "تحرير المدن" والسيطرة عليها، وأدركت متأخرة، أن ذلك لم يكن سوى فخٍّ من قبل النظام السوريّ، فكانت كلفة هذه الحروب عالية جداً وآثارها السلبية لا تعد ولا تحصى، بينما القدرة على الحفاظ على هذه المساحات الشاسعة فهي من شبه المستحيل على قوات المعارضة العسكرية التي كانت ومنذ تشكلها تفتقد لمقومات العمل العسكري.

من جهة أخرى، فشلت قوى المعارضة المختلفة في إيجاد قيادةٍ موحدة، قادرة على أن توحد جهود التشكيلات العسكرية، وترسم سياساتها الإستراتيجية.

ورغم أنه وبين نهاية عام 2013 وحتى نهاية 2014 تمّ الإعلان عن العديد من التجمّعات العسكرية الجديدة، والساعية إلى توحيد الصفوف، كتجمع جيش الإسلام أو تجمع جيش الأمة، أو حتى الجبهة الإسلامية، إلا أنه وجميعها على وجه التقريب، كانت تجمعات ذات طابع إعلاميٍّ، تستهدف الممولين أكثر من كونها تعبر عن ضرورة تفرضها شروط الصراع.

بعد الإعلان عن تجمع جيش الإسلام، خسرت المعارضة جبهة المليحة، وبعد الإعلان عن تأسيس القيادة العامة في الغوطة الشرقية، تم خسارة جبهتي الدخانية وعدرا البلد، وكان ذلك دليلاً واضحاً على عدم جدية قادة التشكيلات العسكرية المعارضة في توحيد جهودهم وإيجاد قيادة موحدة لجميع القوى العسكرية.

وبغياب القيادة العسكرية الموحدة لمجاميع المعارضة، وهو أمرٌ حاسمٌ في أهميته، غابت وبشكل شبه كامل، أية خطةٍ عسكرية واضحة المعالم.

ومن خلال الملاحظة، يمكن القول إن قوى المعارضة لم يكن لها أي تصوّرٍ أو خطة عسكرية واضحة لكيفية مواجهة قوات النظام، ولا حتى كيفية الدخول إلى العاصمة دمشق وإنهاء سيطرة نظام الأسد.

في أغلب الجبهات التي اختارت قوات المعارضة فتحها، أتى ذلك بشكل ارتجاليٍّ وترتب عليه كلفة باهظة؛ هذا ما حدث مؤخراً على جبهة الدخانية شرق العاصمة دمشق، حيث لم يكن من المفهوم في أي سياقٍ اختارت قوى المعارضة التقدم على هذه الجبهة، والتي لم تصمد لأكثر من شهر. والأمر نفسه ينطبق على دخول قوات المعارضة إلى حي جوبر منذ آذار عام 2013، وعجزها عن التقدم خطوة بعده، مع العلم أن حي جوبر كان في قبضة القوى المدنية للمعارضة، والتي كانت تسيطر على الحي عبر مجلس محليّ ومؤسسات تابعة لها. كذلك الأمر بالنسبة لجبهة مخيم اليرموك، وأيضاً جبهة مدينة عدرا والتي أيضاً لم تتمكن قوى المعارضة من الصمود فيها.

على صعيدٍ عسكريٍّ، وقفت مجموعة عوامل خلف الخسارات التي تكبّدتها قوى المعارضة السورية، في مقدمتها كان أولاً، ضعف الهيكلية التنظيمية لهذه المجاميع وما رافقه من ضعف على مستوى العتاد والسلاح النوعي، وثانياً، غياب أي قيادة موحدة لهذه التشكيلات العسكرية، وهو عاملٌ كان حاسماً بشكل دائم على مستوى الأداء العسكري لهذه التشكيلات، وثالثاً، غياب أي خططٍ إستراتيجية على صعيد المواجهة مع قوات النظام، وحلول الارتجال والمعارك غير المحسوبة عوضاً عنها.

2- عوامل سياسية

منذ بداية **تسليح** الثورة، أدى الممولون دوراً مهماً –في كثير من الأحيان مقرراً– في خيارات الكثير من التشكيلات العسكرية المعارضة، ومع الوقت انتقلت صراعات الجهات الممولة إلى داخل صفوف المعارضة ذاتها، وأدت هذه الصراعات بين الممولين دوراً حاسماً في منع توحد قوى المعارضة ورصِّ صفوفها.

وفي نهاية عام 2012، وفي ذروة الانتصارات الميدانية التي كانت حققتها قوى المعارضة على الأرض، بدا وكأن هناك قراراً من قبل الممولين بتجفيف منابع التمويل بالنسبة للعديد من المجاميع العسكرية، وهذا ما حدث فعلياً، إذ ومنذ بداية عام 2013، ستبدأ أغلب التشكيلات العسكرية تعاني من شحِّ التمويل، وفي الوقت الذي كانت قوى المعارضة تتقدم باتجاه دمشق – حتى أواخر 2012– بدا للمراقبين وكأنه اتُّخذ قرارٌ على الصعيد الإقليمي بوقف هذا التقدم، وربما

يأتي وقف التمويل في هذا السياق بالتحديد، سياق عدم رغبة الجهات الممولة بدخول قوات المعارضة إلى عمق العاصمة دمشق.

مع العلم أنه، وبحسب معظم التكهنات، تقف السعودية خلف تمويل جيش الإسلام بقيادة زهران علوش، ويحصل لواء تحرير الشام بقيادة النقيب فراس البيطار على تمويل من الولايات المتحدة. وبالنسبة لهذين التشكيلين اللذين يُعدَّان من أقوى التشكيلات في محيط دمشق، فقد سجل لهما خوضهما لأهم المعارك في محيط دمشق، وسيطرتهما على أهم القطع العسكرية التابعة لقوات الأسد؛ كمطار مرج السلطان وكتيبة الرادار في الغوطة الشرقية وغيرها العشرات من المواقع. وكل هذا كان حتى نهاية عام 2012، بعد هذا التاريخ وحتى اللحظة الراهنة (نهاية 2014) لم يسمع بعملية مهمة قام فيها لواء تحرير الشام، أو حتى جيش الإسلام. وكأننا هنا إزاء قرارات تم تطبيقها بشكلٍ حرفيٍّ، حول وقف العمليات العسكرية، ووقف التقدم باتجاه عمق العاصمة دمشق.

3- الاختراقات الأمنية

تمكنت قوات النظام السوري، من تحقيق اختراقات واسعة في صفوف قوات المعارضة، ولاسيّما العسكرية منها، وبحسب "براء" الناشط الإعلامي في جنوب العاصمة دمشق: "لا يوجد نظامٌ أمنيٌّ لدى كتائب الجيش الحر تساعدهم على كشف الخونة والعملاء، كما حدث في بلدات جنوب دمشق مثل سبينة وحجيرة والبويضة والذيابية والبهدلية والحسينية.. حيث قامت قوات الأسد باختراق صفوف الثوار عبر عملاء لها كانوا من عناصر الجيش الحر وقامت بإغرائهم بالمال والطعام".

وفعلاً في بداية العام الجاري (2014)، قام المدعو "بيان المزعل" قائد كتائب جند الله من لواء الحجر الأسود[5]، بالتنسيق مع قوات النظام وتحوّل من قائدٍ لإحدى مجموعات المعارضة إلى قائد لعمليات اقتحام منطقة السبينة، جنوب دمشق، وهو المتهم بتسليم جبهة بلدة حجيرة لقوات الأسد. ولا تعدُّ هذه الحادثة حالةً فردية[6]، فقد تكررت هذه الاختراقات في أكثر من مكان، لتفضي في كثير من الأحيان إلى تمكن قوات الأسد من السيطرة على العديد من الجبهات.

---

[5]- راجع: محمد الإمام، ثلاثة من قادة "الحر" مُجدداً في حضن الأسد، على موقع NOW الإلكتروني بتاريخ: 6-5-2014.

[6]- راجع: أسامة براء، تحقيق ميداني خلف المتاريس: خيانة وسرقات واختراق أمني وراء سقوط السبينة وبلدات جنوب دمشق، موقع "كلنا شركاء" الإلكتروني، 24/11/2013.

خلاصـة

شهدت المرحلة الممتدة بين آذار 2013 وحتى نهاية عام 2014، ديناميّة عالية على صعيد سعي التشكيلات العسكرية السورية لإعادة هيكلة قواها، وتوحيدها في جسمٍ واحد، وفي كل الحالات، بدا وكأن إعادة الهيكلة هذه، تذهب في اتجاه اختيار إستراتيجيات جديدة، تسمح لقوى المعارضة بتحقيق تحسن على شروط القتال ضد قوات الأسد. إلا أن ذلك لم يفضِ إلى إيقاف تدهور الأوضاع وتقدم قوات الأسد على المستوى العسكري، بل على العكس، سجلت هذه المرحلة تسارعاً في تقدم قوات الأسد، وخسارات متتالية لقوات المعارضة على عدة جبهات إستراتيجية.

وفي الوقت الذي أدت فيه العوامل العسكرية دوراً حاسماً في تراجع قوى المعارضة، إلا أن الصراعات البينية، بين تشكيلات المعارضة المختلفة –وهي صراعاتٌ رأينا أعلاه أنها شكلت في كثير من الحالات امتداداً للصراعات الدائرة بين الجهات الإقليمية الممولة لهذه التشكيلات– كان له كبير الأثر على ضعف أداء قوى المعارضة بشكل عام، حتى إن هذه الصراعات وفي كثير من الحالات تحولت إلى مواجهاتٍ مكشوفة فيما بينها، تاركةً أثرها السلبي على جبهات القتال ضد قوات الأسد.

بينما أدى الاستحواذ على "الغنائم" وفرض السلطة على المدن والبلدات المختلفة، دوراً مهماً في نشوب معاركَ ضاريةٍ بين العديد من التشكيلات العسكرية المعارضة، والتي أدت إلى تصفية العديد من القيادات العسكرية المهمة، كما حدث في مدينة دوما وما شهدته في شهري أيلول وأكتوبر من العام الجاري، من تصفيات لكبار قادة جيش الأمة المعارض.

وفي كلّ الأحوال، وقفت هذه العوامل مجتمعة خلف الضعف الذي رافق عمل تشكيلات المعارضة العسكرية، وكان لها كبير الأثر في تراجع أدائها وفيما بعد انسحاباتها عن العديد من الجبهات.

ملحق: خريطة توزع الأطراف في دمشق

(i) خريطة تبرز مناطق سيطرة كل من جيش الأسد وقوى المعارضة

